البعد الإيديولوجي لعلم الاجتماع:
دراسة في النظرية الاجتماعية

أ.د. طاهر حسو الزيباري*

تاريخ التقديم: 2008/7/17 تاريخ القبول: 2009/4/1

مقدمـــــة

كلنا يحمل أيدولوجيا بوعي أو بدونه، فكلنا يتعلق ويثمن قيماً محددة، كالحرية، المساواة، السلطة... الخ. وكلنا يحمل أشياء قبلية، حتى الذين ينكرون ذلك أو يدعون التحرر من ذلك. فنحن ننظر إلى العالم من خلال أفكارنا وتصوراتنا، وكلنا يرتبط بهؤلاء الذين يحملون أفكاراً مشابهة لأفكارنا، وأكثر من ذلك، كلنا ينظر بحساسية لبعض القضايا مثل الوطن، الدين، القومية. فأفكارنا هي التي تخلقنا وتحدد اختياراتنا وسلوكنا.

بدون أيديولوجيا نكون أفراداً بدون ضمير، بدون قيادة، وبدون نظام ولا نملك تصوراً للآخرين ولا للعالم الذي نريد بناءه، فالأيديولوجيا تشكل دوافعنا، ومواقفنا سوءاً على المستوى الفردي أو على المستوى المؤسسي.

نشأت الأيديولوجيا في الأصل كعلم شارح أو ما بعد علم Meta Science، أي كعلم للعلم[1]. لكن ينبغي الوعي بأنه ليس كل أيديولوجية يمكن أن تصبح علماً أو حتى فناً أو فلسفة، لكن يمكن القول إن جميعهم قد يكون نتاجاً لتقليد أيديولوجي معين –الليبرالية كفلسفة مثلاً–، وقد تعمل هذه المجالات كأيديولوجيات، إذ إنها في مجملها فعاليات إنسانية قد تستمد استمراريتها من العمل الأيديولوجي. إن أعمال ماركس، داروين، على سبيل المثال هي أعمال علم، لكنها عملت أيضاً كأيديولوجيات، (اشتراكية علمية)، (داروينية اجتماعية).

---

* قسم علم الاجتماع/ كلية الآداب/ جامعة صلاح الدين – أربيل.

(1) ديفيد هوكس، الأيديولوجيا، ترجمة إبراهيم فتحي، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، 2000، ص46.

يقول مبتكر مصطلح الأيديولوجيا دستوت دى تراسي Destutt de Tracy، في مؤلفه (مبادئ الأيديولوجيا) بأنه لا وجود لأفكار نظرية ما دام كل الفكر مستمداً من الإحساس. كما أعتقد، أنه لا شيء يوجد بالنسبة لنا إلا بواسطة الأفكار التي نمتلكها عنه، لأن أفكارنا هي كينونتنا بأكملها، هي وجودنا نفسه، وكما هي الحال عند توماس هوبز Thomas Hobbes (1588– 1679) تخلق الأشياء الأفكار. ولكن هذه الأفكار لا تستطيع أبدا أن تكون مطابقة للأشياء. وبذلك يرى دي تراسي الفرع العلمي الجديد، وهو الأيديولوجيا (علم الأفكار) لنفسه ألا يكون أقل من العلم الذي يفسر كل العلوم[1]. فالمفكر أو المنظر هو نتاج لتفاعل الأفكار. ثم هو في النهاية واستناداً إلى افتراضاته الكامنة وبناء عواطفه يرتبط بأفكار معينة تتعلق بالمجتمع القائم أو المجتمع الذي ينبغي أن يكون. ومن الطبيعي أن تؤثر الأيديولوجيا أو المعتقدات على تصوره للمجتمع. ومن ثم تفرض عليه التأكيد على بعض متغيرات الواقع باعتبارها المتغيرات الفاعلة.

كما أن النظرية السوسيولوجية تختلف في دقتها وموضوعيتها وثباتها وصدقها عن النظريات الطبيعية والبيولوجية، مما دفع العديد من العلماء إلى التشكيك في جدوى وأهمية التنظير السوسيولوجي، والتشكيك في علمية العلم ذاته. ولذلك سعى علماء الاجتماع وباحثوه إلى الدفاع عن علمية العلم، بتقديم التبريرات المنطقية والعلمية إثباتاً لعلمنة علم الاجتماع، نظرية، ومنهجاً، وتطبيقاً، حيث إن طبيعة الموضوعات التي يدرسها علم الاجتماع تختلف عن طبيعة الموضوعات في العلوم الأمبيريقية، من ناحية، أضف إلى ذلك حداثته النسبية، وعدم قدرته على الانفصال عن التوجيهات القيمية والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والعقائدية لباحثيها، من ناحية أخرى. ومن هنا أتخذ البعض هذا الجانب سلاحاً للطعن في علمية علم الاجتماع، باعتباره لا يمثل دراسة علمية إمبيريقية واقعية، خالية من التوجيه الأيديولوجي.

وإذا كانت الوظيفة الأيديولوجية للنظرية، هي إحدى وظائفها، فإن اللعب على الوتر الأيديولوجي– باعتباره الوتر الرئيسي – كان أحد الممارسات التي

(1) المصدر نفسه، ص 46–47.

أعاقت نمو النظرية الاجتماعية على نطاق الواقع الغربي وكذلك واقعنا في منطقة الشرق الأوسط. ولكن هل يستنتج من ذلك أن الحقيقة الموضوعية لا وجود لها وبالتالي أن العدول عن البحث عنها مطلوب ؟ أيمكن أن تعتبر – بناء على مبدأ النسبية – أن جميع النظريات هي بناءات فكرية بحته لا علاقة لها بالواقع الموضوعي، وبالتالي أنها متساوية من حيث (المبدأ).

من هذا المنطلق، قام الباحث بدراسة علاقة الأيديولوجيا بعلم الاجتماع، للوقوف على طبيعة الأيديولوجيا ومدى إسهامها في توجيه النظرية والمنهج والبحث، وأثر ذلك على علمية وموضوعية الدراسة والبحث، وموقف علماء الاجتماع في دول العالم من النظريات السوسيولوجية القائمة ومدى نجاحهم في إقامة علم اجتماع موحد، بعيد عن التوجيه الأيديولوجي، ودراسة الظواهر والقضايا الاجتماعية كما هو في الواقع بصورة موضوعية.

وقد سعى الباحث جاهداً ليجعل هذه الدراسة استمراراً لما سبق من معالجات العلاقة القائمة بين الأيديولوجيا من ناحية وعلم الاجتماع من ناحية أخرى والتي تعرض لها العديد من علماء الاجتماع وباحثيه. وتتناول الدراسة هذه العلاقة وفق المحاور التالية:

أولاً: الدراسة السوسيولوجية للإيديولوجيا (المفهوم والنشأة)
ثانياً: خصائص الأيديولوجيا ووظائفها
ثالثاً: الأيديولوجيا ونظرية علم الاجتماع
رابعاً: الإيديولوجيا والبحث السوسيولوجي
خامساً: نهاية إلايديولوجيات في الدراسات السوسيولوجية

أولا: الدراسة السوسيولوجية للإيديولوجيا (المفهوم والنشأة):

لا يخلو استعمال مصطلح (Ideology) من التباس، نظراً لتعدد دلالاتها ضمن السياق الذي تدرج فيه، وما يزيد من هذا الالتباس ليس عدم تحديد الباحث مدلول المصطلح، بل أيضا بوصفها إحدى أدوات التحليل المتداخلة التي أنتجها تطور أشكال تمثل العالم الاجتماعي، والتي لا يزال التمييز الدقيق فيما بينها موضع جدل بين العديد من المنظرين والباحثين. من هذه الأشكال (الثقافة، الفكر،

المعرفة، النظرية، الفلسفة، العقل، العلم، والمذاهب السياسية، علاوة على الطوبائية والتجليات الاجتماعية الأخرى...الخ). وكما يقول أحد النقاد، الأيديولوجيا من أشيع المفاهيم حالياً، واللفظ من أكثر الألفاظ تداولاً ولكن معناها من أكثر المعاني إثارة للجدل ومن ثم فهو أقل المفاهيم ثباتاً... لذلك فإن مفهوم الأيديولوجيا موضوع لعملية أدلجة (Ideologisiation) مكثفة[1].

إن مصطلح أيديولوجيا مشتق من كلمتين هما(Idea) فكرة، و(Loges) علم. إذن، فالأيديولوجيا تعني علم الأفكار. وكان الهدف من المفهوم الجديد هو أن يحل محل (الميتافيزيقيا)، التي كانت غير ذات قيمة بعد الثورة الفرنسية، والتي عملت على تغيير كل شيء وذلك لتأكيد انفصالها عن النظام القديم.

ويرى (دافيد ماكيلان) D. Mclellan أن الأيديولوجيا كمفهوم يعد من أكثر المفاهيم المحيرة Elusive Concept، الذي يوجد في العلوم الاجتماعية ككل، وهذا يرجع إلى عدة عوامل أساسية منها[2]، إن مفهوم الأيديولوجيا تدخل في تفسيره ظروف متعددة، ومن الصعوبة تحديدها من الناحية النظرية والواقعية، وهذا ما يرتبط أساساً في تحديد مفهوم الأفكار والمعتقدات، أو اعتباره جزءًا من السلوك السياسي والحياة المادية.

ولا يزال مفهوم الأيديولوجية موضع خلاف بين العلماء والمهتمين بالأيديولوجيا السياسية، فأحياناً يستخدم على أنه سلاح، أو مجموعة من النصائح أو الإرشادات، وأحياناً، يستخدم على أنه مجموعة من الأفكار الانتقادية لطبيعة النسق العقائدي السياسي ككل[3].

ويفضل رينهارد بندكس (1916...) استخدام مصطلح (علم اجتماع المعرفة) عندما يقوم بدراسة الأفكار من وجهة نظر علاقتها بالعمل وبالواقع الاجتماعي، ويكون التركيز في هذه الحالة على دراسة أسباب ونتائج الأفكار،

---

(1) ميشل فادية، الايدولوجيا وثائق من الأصول الفلسفية: ترجمة أمينة رشيد وسيد البحراوي، ط1، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 1982، ص10.

(2) Mclellan, D, Ideology, London, Open Uinv. Press, 1986, p.1.

(3) عبدالله محمد عبدالرحمن، علم الاجتماع السياسي–النشأة التطورية والاتجاهات الحديثة والمعاصرة، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 2001، ص390.

وليس على مضمونها أو على مقدار صدقها. ويرى بندكس أيضا إلى أن عصر الأيديولوجيا قد بدأ في أوربا خلال القرن الثامن عشر مع تحطيم أساسيات التنظيم الإقطاعي الذي ساد خلال فترة العصور الوسطى، ومع ظهور ثقافة التنوع أو التعدد pluralistic Culture والتي يقصد بها، تلك الثقافة التي تسمح بتعدد الأفكار والآراء وبالاختلاف في المنظورات ووجهات النظر[1]، وهذا يعني أن ثقافة التعدد على حد تعبير بندكس تتضمن حرية الفكر والتفكير.

أما عند كارل ماركس (1818–1883) وانجلز (1820–1895) الذي أثار مشروعهما النظري الاهتمام بالأيديولوجيا حيث يرون أن مفهوم الأيديولوجيا لا يشمل نظرية المعرفة السياسية فحسب، بل أيضا الميتافيزيقيا والأخلاق والدين وأية (صورة للوعي) تعبر عن المواقف والالتزامات الأساسية لطبقة اجتماعية[2].

إذن، الأيديولوجيات عند ماركس تعبير عن نسق من الأفكار والتطلعات والأهداف الخاصة لدى الطبقة المسيطرة والتي تسعى من خلال هذه الأيديولوجيا إلى تبرير مصالحها بصورة مزيفة، وهي تمثل إحدى معالم الاغتراب الإنساني داخل المجتمع لأنها تعبير عن البناء الفوقي Super Structureالمزيف الذي يخفى البناء التحتي Infra Structure. في حين أن نورمان بيرنبوم Birnbaum ربط بين تصور ماركس عن الأيديولوجيا، وتصوره عن الاغتراب Alienation الذي يحمل ثلاثة معان، أولها تجاوز ناتج الجهد الإنساني لقدرة الصانع على التحكم فيه، وثانيها إضفاء وجود مستقل على الأشياء وتجسيمها دون صانعها، وثالثها استقلال التصورات العقلية الخالصة ونتائجها عن المادة[3].

ويوضح السمالوطي عدم إثبات مفهوم الأيديولوجيا عند ماركس حيث يقرنه أحياناً بالتصورات الدينية والفلسفية والقانونية السائدة في المجتمع، ثم يعتبره

(1) نبيل محمد توفيق السمالوطي، الأيديولوجيا وقضايا علم الاجتماع النظرية والتطبيقية، دار المطبوعات الجديدة، الإسكندرية، 1989، ص27.

(2) على ليله، بناء النظرية الاجتماعية، سلسلة النظريات الاجتماعية، الكتاب الأول، المكتبة المصرية، القاهرة، ص114.

(1) نبيل توفيق السمالوطي، الأيديولوجيا وأزمة علم الاجتماع المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، 1975، ص201.

اِنعكاساً لمصالح الطبقات المسيطرة المالكة، ويراها ثالثاً، مرادفة لمعنى الثقافة أو الوعي المزيف عند الجماهير[1].

وقد قامت محاولات لتضييق المفهوم الماركسي للأيديولوجيا، ليصبح أحد مكونات الثقافة بدلاً من أن يكون مرادفاً لها كما أدعت الماركسية. ولذا يقرر فرديناند دوموند F. Dumond ان أغلب العلماء المعاصرين في علم الاجتماع ينظرون إلى الأيديولوجيا كنسق من الأفكار والأحكام الواضحة المنظمة بصورة عامة لتفسير سلوك وتبرير وضع الجماعة التي تدين به[2].

ويعرف تالكوت بارسونز (1902–1979) الأيديولوجيا بأنها نسق من الأفكار الموجهة أو التي لها أصل إمبيريقي، تلك التي تمنح الإنسان تفسيراً للطبيعة الامبيريقية للجماعة وللموقف التي تقف فيها، والعمليات التي تطورت بها حتى بلغت حالتها الراهنة، ثم الأهداف التي يتوجه إليها الأعضاء جماعياً، كذا علاقتهم بمسار الأحداث في المستقبل[3].

أما علماء الاجتماع السياسي، فقد اعتبروا أن الأيديولوجيا السياسية تتعلق بمعالجة قضايا تتصل بالحكم والإدارة وسياسة المجتمع من خلال اهتمامها باختيار القادة وتحديد شخصياتهم ومجالات تخصصهم من ناحية، وكذلك الاهتمام بالحوار والجدل القائم بين وجهات النظر السياسية والاجتماعية المتعارضة التي تؤثر على سلوك وقيم أعضاء المجتمع.

إذ يعتبر انتونيو غرامشي (1891–1937) الأيديولوجيا بأنها نسقاً متكاملاً من الأفكار السياسية والقانونية والأخلاقية والدينية والفلسفية والعلمية، يوجه السلوك ويحدد العلاقات وردود الأفعال في المواقف الاجتماعية المختلفة[4]، وأوضح غرامشي أنه ضد أي مفهوم للإيديولوجيا (كوعي زائف) فهو لم يهتم بإمكانية زيف الأيديولوجيا ولكنه أهتم بوظيفتها التي تؤديها. فالأيديولوجيا عنده، تصور للعالم

---

(2) المصدر نفسه، ص10.

(3) المصدر نفسه، ص212.

(4) Talcot Parsons, The Social System, The Free Press, Glencoe, 11-Linois, 1951, P.349.

(1) أحمد جعفر حسين الكندري، الأيديولوجيا وعلم الاجتماع – دراسة في النظرية الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2006، ص32.

تمثله عقيدة لا تحفز على النظر بل على العمل، وهذا التصور يظهر واضحاً في الفن وفي القانون وفي النشاط الاقتصادي، في كل تجليات الحياة الفردية والجماعية[1]. وعلى هذا الأساس فالأيديولوجيا، هي أساس كل نظام اجتماعي وسياسي لأن المجتمع لا يقوم على العنف، بل أيضاً على (الهيمنة) الإيديولوجية.

لذلك فقد اِبتعدت مفهوم الأيديولوجيا كثيراً عن المفهوم الماركسي الكلاسيكي، إذ نظر إلى الأيديولوجيا أبعد من أنها مجرد انعكاس للمصالح الاقتصادية، بل هي عنده قوة محركة ولها دورها في التاريخ، ولذا فقد سعى إلى اقتلاعها من جذورها المادية، وإبراز استقلاليتها وسيادتها.

أما الأيديولوجيا في الإطار غير الماركسي، فقد أتناول فيه مساهمات كل من ماكس فيبر (1881–1961) واميل دوركايم (1858–1917) وكارل مانهايم (1891–1947) في طرح مجموعة آراء وتصورات حول أصل الأفكار ونشأتها، والتي كان لها تأثير كبير في الرفع من مستوى معالجة الأيديولوجيا في الإطار غير الماركسي.

فقد أوضح فيبر في مناقشاته حول الموضوعيةObjectivity في العلوم الاجتماعية أن مفهوم ماركس للأيديولوجيا يمكن أن يقوّض الماركسية نفسها[2]، فقد أعتقد فيبر في وجود علم خال من القيم، أي قيم الباحث. هذا جانب من جوانب فيبر الذي أخذت بها الدراسات المعاصرة في العلوم الاجتماعية.

أما دوركايم، فقد فرّق بين العلم والأيديولوجيا حيث يعتقد أن الأيديولوجيا معارضة للعلم، فالمنهج Method الأيديولوجي يكون في استعمال أفكار وتطابقها مع حقائق بدلاً من أن يستمد أفكاراً منها. والعلم في الجانب الآخر يهتم بدراسة الحقائق الاجتماعية والتي تتركب من أشياء ثابتة كمعايير دائمة، والتي دائماً تساعد على ترك تأثيرات أو ملاحظات ذاتية للباحث.

---

(2) مالك عبيد أبو شعيوة وآخرون، الأيديولوجيا والسياسة – دراسات في الأيديولوجيا السياسية المعاصرة، ج1، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، سرت، ليبيا، 1996، ص40–41.

(3) السيد الحسني، علم الاجتماع السياسي، المفاهيم والقضايا، دار المعارف، القاهرة، 1984، ص229–343.

من هنا كان دوركايم غير مهتم بالأصل الاجتماعي للأفكار المكونة سلفاً، ولكنه يرجعها إلى النزعة الفطرية الملازمة للعقل الإنساني. فقد حدد مصدر الدين في البناء الاجتماعي، وكان يعني أيضاً بأنه عامل تكامل اجتماعي، فأشكال الدين وأشكال المجتمع كانت بالنسبة له واحدة أو متماثلة، وبالرغم من أن دوركايم لم يستعمل لفظ أيديولوجيا هنا ولكنها كانت تبدو واضحة ضمنياً في رؤيته[1]. وعلى أية حال فقد ركز دوركايم على دور الدين ووظائفه الاجتماعية كممثل جماعي للمجتمع وعموماً، فبتركيزه على البناء الموضوعي ورفضه الذاتية يكون دوركايم قد وضع أسس مناقشات الأيديولوجيا فيما بعد.

المجتمع وفقاً لهؤلاء العلماء لا يستطيع أداء وظائفه، أو أداءها بشكل جيد بدون الأيديولوجيا، فهي لا تتغير بالتحديدات التكنولوجية أو العمل المؤسسي، وعلى سبيل المثال يمكن أن تجد المجتمع نفسه في مواجهة أيديولوجيات أخرى مناقضة. فعندما لا تتماشى الأيديولوجيا مع الظروف الواقعية والعلاقات الواقعية، فالفوضى الاجتماعية تهدد النظام الاجتماعي، وإذا كان الاستقرار يعتمد على تناسق الأيديولوجية والظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فهي المفتاح الأساسي لتحليل العلوم الاجتماعية وهو دراسة الأيديولوجيا وعلاقاتها بالواقع.

تأثر كارل مانهايم بأفكار ماركس وفيبر، وإذا كان ماركس وأتباعه قد أشاروا إلى أن مشكلة الأيديولوجية هي جزء من المعالجات الاجتماعية والسياسية، فمانهايم هو الذي أنتج تفاصيل كاملة وشاملة لنظرية الأيديولوجيا. هذه النظرية كانت في كتابه(الأيديولوجيا واليوتوبيا). Ideology and Utopiaوقد جعل مانهايم الأيديولوجيا المفهوم الأساسي في علم السياسة والمعرفة الاجتماعية، وكان يهدف في هذا إلى الكشف عن العوامل الاجتماعية التي تشكل وتحدد السياسة والإنتاج الفكري.

فالإيديولوجيا عند مانهايم أسلوب محدد للتفكير، وممارسة السلوك بعكس السلوك الاجتماعي للجماعات ويخدم من يقومون على نشره وإقامته، وهو في ذات

(1) E. Durkeim, The Rules of Sociological Method, London, Macmillan, 1982, p.88.

الوقت تجسيد للصراع السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي يتحكم في الفكر الطبقي من أجل مصالح خاصة عبر مراحل التأريخ[1].

ويقسم مانهايم الأيديولوجيا إلى:

1. الأيديولوجيا الجزئية:

ويقصد بها اتخاذ موقف متشكك تجاه أفكار وتصورات الخصم باعتبارها تمويهات مقصودة بدرجات مختلفة الحقائق حتى لا يدركها الخصم أو الطرف الآخر، وتتراوح هذه التمويهات بين أكاذيب مقصودة أو غير مقصودة، وبين محاولات متعمدة لخداع النفس أو خداع الآخرين. هذا التصور للأيديولوجيا التي أصبح بالتدريج متميزاً عن المفهوم العادي للكذب هو تصور جزئي بمعانٍ متعددة. فهذه الايدولوجيا تشير إلى إيديولوجيا عصر ما أو جماعة معينة أو تكوين معين.

2. الأيديولوجيا الكلية:

ويقصد بها الإشارة إلى سمات البناء الكلية لعقلية جماعة أو عصر أو طبقة اجتماعية محددة، بحيث يعكس هذا البناء العقلي تصوراتهم وقيمهم وغاياتهم، فتكون بذلك أقرب للتعبير عن روح العصر لهذه الجماعة أو ثقافتها[2].

وقد عمل مانهايم على التمييز بين الأيديولوجيا واليوتوبيا، فالأيديولوجيا منظومة من الأفكار والقيم والمعتقدات التي تسعى للحفاظ على الوضع الاجتماعي القائم وبالتالي فهي محافظة، أما اليوتوبيا فهي منظومة من الأفكار والقيم التي تسعى نحو المستقبل والتي تتضمن في الغالب نقداً للأوضاع القائمة وفي الغالب ثورية. كما أنها أحلام تلهم العمل الجمعي لجماعات المعارضة التي تهدف إلى تغيير المجتمع تغيراً كاملاً[3].

---

(1) الكندري، المصدر السابق، ص37.

(2) كارل مانهايم، الايدولوجيا واليوتوبيا، ترجمة: د. محمد رجا الديريني، شركة المكتبات الكويتية، 1980، ص129–130.

(1) المصدر نفسه، ص247.

وعلى أساس هذا التميز، فكل منظومة فكرية تتضمن إلى حد كبير جداً بُعداً يوتوبياً وذلك وفقاً للظروف المختلفة التي تظهر فيها التكوين الاجتماعي الذي يستعملها. فعلى سبيل المثال، كانت الليبرالية في القرن الثامن عشر يوتوبياً بينما أصبحت في القرن التاسع عشر أيديولوجياً. وعلى هذا الأساس يرى البعض أن التوبي ذهنية الطبقات إبان حضورها والإدلوجة ذهنية الطبقات في حالة اندحارها[1].

وبغض النظر عن كون الأفكار السياسية محافظة أو يوتوبياً، فهي في واقع الأمر تعبير عن مصالح تكوينات اجتماعية مختلفة، وكل منهما تؤثر بشكل أو بآخر في مجرى التاريخ وتطور المجتمع.

وعلم اجتماع المعرفة عند مانهايم إنه منهج تحليلي مقارن للأفكار والتصورات الأيديولوجية، فإنه نظرية تحلّل العلاقة بين المعرفة والوجود، أو بين الفكر والواقع الاجتماعي باكتشاف الصور التي تتشكل بها العلاقة بين الفكر والواقع عبر مراحل تطور الفكر الإنساني[2]. وعلى هذا الأساس فقد ميز مانهايم بين نظرية الأيديولوجية وعلم اجتماع المعرفة، حيث نظرية الأيديولوجية ترتكز على الاستعمال الجزئي لمصطلح الأيديولوجية، في حين يهتم علم اجتماع المعرفة بالاستعمال الكلي لمصطلح الأيديولوجية. يقول جورج جورفيتش (1894–1967) إن علم اجتماع المعرفة لا يمكن استخدامه في إبطال المعرفة الزائفة وكشفها وتحريرها كما أراد ذلك ماركس، وعلى عالم الاجتماع المتخصص في ميدان المعرفة أن يكتفي بالتحليل العلمي، دون أن يقفز، انطلاقاً من هذا التحليل، نحو التفسير السياسي[3].

هذا، ولا يهدف علم اجتماع المعرفة إلى إحلال مذهب فكري أو أيديولوجي أو عقائدي مكان مذهب أو فكر آخر، ولا يسعى لتمجيد فلسفة ما، على أساس تصفية فلسفة أخرى، بل هي محاولة علمية للوصول إلى المعرفة الحقيقية

(2) عبدالله العروي، مفهوم الأيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1988، ص47.
(3) كارل مانهايم، مصدر سابق، ص19.
(1) فردريك معتوق، تطور علم اجتماع المعرفة من خلال تسعة مؤلفات أساسية، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1982، ص170.

الموضوعية في فكر جميع الأطراف والجماعات والمذاهب الأيديولوجية والفكرية المختلفة. فهو علم أكثر واقعية في نظرته للوقائع والأحداث والظواهر يستند على منهج تأريخي تحليلي مقارن، ويؤكد على تغلغل الفكر الأيديولوجي في العلوم الاجتماعية.

وفي ضوء ما سبق، يمكن القول بأن الأيديولوجيا ظاهرة كلية تتعلق بمستويات الوجود الاجتماعي كافة:المستوى الاجتماعي، والمستوى السياسي، والمستوى السيكولوجي، والمستوى المنطقي.

ثانياً: خصائص الأيديولوجيا ووظائفها:

تلعب الأيديولوجيا دوراً بارزاً في حياة المجتمعات وفي قيام النظريات العلمية والفكر الاجتماعي وتوجيهها من خلال ديناميتها وتغيرها المستمر عبر الفترات التاريخية المختلفة التي تنشأ فيها. وهناك العديد من الخصائص الأساسية للأيديولوجيا التي حددها علماء الاجتماع والسياسة من خلال علاقة الأيديولوجيا بالأبنية الاجتماعية المختلفة داخل المجتمع. ويمكن إجمالها بما يلي:

1. الأيديولوجيا والثقافة:

لعل التداخل الذي سبق أن أشرنا إليه في الدراسة السوسيولوجية للأيديولوجيا بين الأيديولوجيا ومفاهيم أخرى مثل الثقافة والمعرفة، يعود ليس فقط إلى حضور الأيديولوجيا في أكثر أشكال تمثل العالم الاجتماعي فحسب، بل أيضاً إلى الخلط بين هذه المفاهيم رغم كل محاولات التمييز بين فروع العلوم الاجتماعية والمسائل التي تتخصص كل منها في معالجتها، حيث هناك اتجاهان للثقافة، أحدهما ينظر إلى الثقافة على أنها تتكون من القيم والمعتقدات والمعايير والتفسيرات العقلية والرموز والأيديولوجيات وما شاكلها من المنتجات الفكرية، أما الأخر فأنها تشير إلى النمط الكلي لحياة شعب ما والعلاقات الشخصية بين أفراده وكذلك توجهاتهم[1]. وبسبب هذا التداخل بين الأيديولوجيا والثقافة، جعل البعض

(1) ميكل توميسون وآخرون، نظرية الثقافة، ترجمة علي سيد الصاوي، سلسلة عالم المعرفة، العدد–22 الكويت، 1997، ص31.

ينظر إلى الأيديولوجيا كأنها رديفة الثقافة، بل وعند البعض، فإن الثقافة نفسها تعبير أيديولوجي قد أُغفلت[1]. إن مما يدل على حضور الأيديولوجيا في الثقافة، هو تأكيد(غي روشيه) بأن الأيديولوجيا جزء من الثقافة حيث تتخذ مظهراً أكثر عقلية، أو وضوحاً، وأكثر نضالية من النماذج والقيم، باعتباره مصدراً للانقسام والخلاف داخل جماعة ما وبين الجماعات[2]. في حين يبين (جورفيتش) أن المعرفة السياسية غير مسكونة بالأيديولوجيا فقط، بل باليوتوبيات والأساطير[3].

ويرى (ريمون رويه) أن الأيديولوجيات هي عقائد مزيفة تصهر الأساطير والقصص الخيالية في بوتقة بأسلوب محدد، وتطوعها في خدمتها للتأثير على فكر وثقافة المجتمع والفرد بأسلوب غير علمي، وتمثل بذلك الأيديولوجيات أساطير زائفة مرتجلة، وسلاح هدام وفتاك تتكيف مع الثورة التي تتمنى وقوعها[4].

ويميز برجر Berger (1929–1979) وتوماس لوكمان T.Luckman بين نوعين من المواقف الثقافية، المواقف التي لا تسمح بالاختلاف والتنوع في الرأي والفكر وهي ما يطلقان عليه المواقف الثقافية الكابتة أو الاحتكارية Monopolistic Cultural Situations مثل الثقافة السائدة في الدول الشيوعية والشمولية. أما النوع الثاني فهي تلك التي تسمح بالتعدد والتنوع والاختلاف Pluralistic Cultural Situation مثل أوربا الغربية أو المجتمعات الديمقراطية[5].

---

(2) تيرى إيجلتون، النقد والأيديولوجية، ترجمة فخري صالح، المشروع القومي للترجمة، العدد–611– ط1–القاهرة، 2005، ص44.

(3) رشيد شقير، الأيديولوجيات السياسية–مقدمة نظرية ومنهجية–مجلة الوحدة، السنة التاسعة، العدد (100)، كانون الثاني/يناير، 1993، ص137–138.

(4) جورج جورفيتش، الأطر الاجتماعية للمعرفة، ترجمة: خليل أحمد خليل، بيروت، 1981، ص42.

(5) ريمون رويه، الممارسة الأيدلوجية، ترجمة عادل العوا، دار عديدات، بيروت، 1978، ص118.

(1) See, Peter L. Berger and Thomas Lucmans. The Social Construction of Reality. N. y. Doubleday,1966. PP. 115-133.

هذا، ويرتبط كل فرد وكل جماعة بأيديولوجية محددة يشعر أنها نابعة من داخل ذاته وتعبر عن مصالحه ومبادئه، وتنعكس هذه الأيديولوجيات في تصوره للحياة الاجتماعية وطريقة تفكيره وسلوكه فيتصرف غالباً وفقاً لهذه الأيديولوجية بطريقة لاشعورية.

إن الرؤى المعاصرة حول الثقافة العالمية توجد ببساطة ضمن سياق خطابات أيديولوجية مختلفة، تمتلك درجة أكبر أو أقل من الحساسية تجاه القضايا التي تتعلق بالتمركز العرقي والهيمنة الثقافية. وفكرة الثقافة العالمية برزت في أواخر القرن العشرين، وهي فكرة أن ثمة ثقافات معينة مهيمنة تُهدد بغمر تلك الأكثر عُرضة للأذى، ومن قضايا هذه الفكرة، هي تلك الخاصة بوجود لغة عالمية... وهكذا فإن انقساماً أيديولوجياً نشأ بين العلماء حول من يحتفون بهذه الفكرة وبين من يجادلون بوجود حاجة إلى الدفاع عن اللغات الأخرى، خصوصا لغات الأقليات[1] ضد تقدم اللغة الانكليزية.

ومن هذا المنطلق، فإن الفيلسوف الأمريكي روي ويزرفورد Weatherford، سعيد تماماً لرؤية اللغة الانكليزية وهي تحتل مكان كل اللغات الأخرى (نتيجة لهيمنة الولايات المتحدة كقوة عظمى عسكرية، واقتصادية، وترفيهية) بناء على هذا الاعتقاد، أن هذا سيؤدي إلى تأمين السلام العالمي... ونصبح عالماً واحداً، وحكومة واحدة، وثقافة واحدة.

في حين نجد مُفكراً مثل جورج مونبيو Monbiot، وهو أحد دعاة (النزعة المحلية) البيئية والثقافية، ويطالب بالدفاع عن لغات الأقلية المهددة (الظاهرة المعاصرة المروِّعة بعض الشيء والتي تتعلق ((بموت اللغات))، ليس بسبب مجرد مركزيتها بالنسبة إلى الهوية الثقافية واتساق المجتمعات المحلية، ولكن تحديداً لأن التعددية اللغوية، ومن ثم الثقافية، تدعم السلام ((فمع موت اللغات، فإن فقدان المعنى المصاحب لذلك يعرض للخطر قدرة كل الناس على المحافظة

(2) جون توملينسون، العولمة والثقافة –تجربتنا الاجتماعية عبر الزمان والمكان، سلسلة عالم المعرفة، العدد(354)، الكويت، أغسطس 2008، ص108–109.

على حياة مسالمة وهادفة... فمن دون التعددية لا يمكن أن يكون هناك سلام، وفي المجتمع، كما في الأنظمة البيئية، يمنح التنوع الاستقرار))[1].

ووفقاً لما سبق، فإن أيديولوجية الهيمنة العالمية للثقافة الغربية، بما فيها القوة السياسية–الاقتصادية للشركات العابرة للقوميات، وانتشارها العالمي نحو توزيع ثقافة رأسمالية واحدة، ودمج كل الثقافات القومية، تصاحبها قوة أيديولوجية لتعريف الحقيقة الثقافية العالمية، ونشوء ثقافة جامعة من الرأسمالية. كما أن الأيديولوجيات بدورها لا تعدو في رأي الباحث أن تكون سوى الثقافات، إن القيم الثقافية هي أجنة الأيديولوجيا التي تعددت أوجهها السياسية والاقتصادية التي شهدنا، وما زلنا نشهد، صراعاتها المنطلقة من قواعدها الثقافية.

2. الأيديولوجيا والعقيدة:

تعتبر القيم والقواعد والمبادئ والنظم الدينية والعقائدية من أهم موجهات السلوك في المجتمعات الإنسانية حيث عرف الإنسان الدين منذ الأزل. وقد أولت الدراسات الفلسفية والاجتماعية الجانب العقائدي أهمية كبرى للكشف عن خفايا الدين وأصول نشأته وتأثيره السحري في حياة الإنسان

والملاحظ أن هناك علاقة جدلية بين العقائد والأيديولوجيات حيث تؤثر العقائد في توجيه الأيديولوجيات وتقوم الأيديولوجيا بدورها بتعزيز العقائد والدفاع عنها وتبريرها. وتسهم الأديان والعقائد والحركات الدينية بدورها في قيام أيديولوجيات مستحدثة قد تسعى فيها لخدمة المجتمع أو لتحقيق مصالح خاصة بجماعات محددة فيه[2]. فالعقائد الدينية قد تخفي وراءها أهدافاً سياسية وتوجيهات أيديولوجية عندما يقوم نظام سياسي على تلك العقيدة الدينية.

3. الأيديولوجيا والنسق السياسي:

تمثل الأيديولوجيا مجالاً بحثياً نامياً في علم الاجتماع السياسي، ومن المفهومات الأساسية في هذا العلم وعلم السياسة، حيث تشير إلى طرق الإدارة

(1) المصدر نفسه، ص110.

(1) الكندري، مصدر سابق، ص60.

ونظم وأساليب الحكم والسيطرة وتوزيع القوة في المجتمع وكذلك اختيار القادة والحكام وممثلي الشعب وخصائصهم التي يجب أن يتحلوا بها وما يقومون به من أدوار ووظائف[1].

ويعتبر النسق السياسي من أكثر الأنساق الاجتماعية تداخلاً مع النسق الأيديولوجي في المجتمع، لأنَّ قادة المجتمع وحكامه يعتبرون الموجهين لسياسته الداخلية والخارجية.

لقد أصبحت الأيديولوجيات أحد المصادر الرئيسية لإضفاء الشرعية ويتمثل ذلك في الإذعان والتأييد، كما تعمل الأيديولوجيا على مساعدة الأفراد على مواجهة الصراع الداخلي. وتسعى أيضاً إلى تحقيق الذات القومية وذلك من خلال التماسك والوحدة داخل الدولة. وكذلك فإنها قوة ديناميكية في حياة الإنسان، أي أنها آلية للتعبئة والسيطرة[2].

ومن الملاحظ فإن البحوث الاجتماعية في الدول النامية موجهة بالأساس لخدمة أهداف سياسية وتقديم بيانات مفصلة عن وضع هذه البلدان لإحكام السيطرة عليها. وهذا ما نجده في تصريحات علماء الاجتماع الأمريكيين تصريحات دالة على التحيز ومجانبة الموضوعية والحياد العلمي في بحوثهم التي كانوا يجرونها في الدول النامية، حيث يقول عالم الاجتماع الأمريكي (أرنولد جرين)، إذا كانت حكومة الولايات المتحدة ترغب في إقامة روابط اقتصادية وسياسية وثيقة مع بلدان شعوب العالم بأسره، فإن علينا نحن (أي علماء الاجتماع) أن نعرف أكثر مما نعرفه عن هذه البلدان وعن شعوبها، ما هي ثقافتهم، وما هي اتجاهاتهم السائدة نحو الولايات المتحدة ونحو النمو الاقتصادي... لذلك يتعين علينا أن نواصل جمع الإجابات على الأسئلة جميعها بحرص والتأكد منها[3].

---

(2) المصدر نفسه، ص64.

(3) مالك عبيد أبو شهيوة وآخرون، مصدر سابق، ص75–84.

(1) أسيبوف. ج، قضايا علم الاجتماع– دراسة نقدية لعلم الاجتماع الرأسمالي، ترجمة سمير نعيم، وأحمد فرج، دار المعارف، القاهرة، 1970، ص62.

وهذا الاتجاه الذي سلكه علم الاجتماع الغربي والأمريكي كان محل إدانة الماركسيين الذين وجدوا في التزامهم فرصة للتقليل من علميتهم، ولكن علماء الاجتماع الماركسي ليس بريئاً من أي التزام من هذا النوع. إذ يقول (أسيبوف) إن مسألة البحوث الاجتماعية الفعلية مسألة علاقات أوثق بالحياة وبالكفاح العلمي لتحويل المجتمع على أسس شيوعية جديدة. وهذه الخاصية هي جوهر علم الاجتماع الماركسي اللينيني... ومن واجب علماء الاجتماع أن يساعدوا الحزب الشيوعي في صياغة المبادئ العلمية لكل أوجه نشاطه المتنوعة، وفي الحل العلمي للمشكلات القومية الفعلية، الاقتصادية والتنظيمية والأيديولوجية[1].

من هنا، يعمل التوجيه الأيديولوجي على تعميق الفواصل التي تبعد بين الاتجاهات السوسيولوجية. فالباحث الاجتماعي ينطلق من خلفيات إيديولوجية يكون لها أثر واضح على توجيه بحوثه نحو وجهة معينة تلتزم بخدمة الأهداف التي تحددها تلك الخلفيات. وهذا يدل على أن الأزمة التي يعاني منها علم الاجتماع هي أزمة في الأسس والمنطلقات التي تقوم عليها النظريات الاجتماعية.

4. الأيديولوجيا ونسق القوة:

يرتبط مفهوم الأيديولوجيا ارتباطا وثيقاً بمفهوم القوة، وذلك أن النظم الأيديولوجيه تعمل على إضفاء المشروعية على تباين القوة التي تحوزها الجماعات الاجتماعية.

وتمثل حيازة القوة أحد الأهداف الأساسية للأيديولوجيات تدعم به وجودها. ولذلك تهتم الأيديولوجيات بمصادر القوة وأساليب ممارستها وتوجيهها وتسعى للتحكم في تلك المصادر، فتهتم بالتنظيمات الفريدة والبارزة التي تتضمن القوة والشرعية كالطبقات الاجتماعية أو التنظيمات المهنية وغير المهنية وتتغلغل داخلها لتؤكد وجودها ولتضمن استمرار مبادئها وتدعيمها ذاتياً من خلال تلك المنظمات والجماعات الاجتماعية[2]. ومن الطبيعي أن يكون إحساس وإيمان

(2) المصدر نفسه، ص270–274.

(1) الكندري، مصدر سابق، ص65.

أعضاء الجماعة أو المجتمع بقوة الأيديولوجيا التي ينتمون لها وقدرتها على الردع عاملاً يزيد من ترابطهم والتزامهم بقواعدها ومبادئها.

ويرى أنتوني جيدنز (1938...) أن الأيديولوجيا عبارة عن منظومة القيم والمعتقدات التي تسهم في تعزيز الموقع الذي تحتله الفئات المتنفذة على حساب الجماعات المستضعفة. وترتبط السلطة/القوة ارتباطاً وثيقاً بالأيديولوجيا والصراع. وأن من يمسكون بزمام السلطة يعتمدون في أغلب الأحيان على تأثير الأيديولوجيا ونفوذها للمحافظة على موقع الهيمنة والسيطرة الذي يحتلونه، مع أنهم قادرون في الوقت نفسه على استخدام القوة القسرية عند الضرورة[1].

5. الأيديولوجيا والنسق الاقتصادي:

حاولت بعض الدراسات المتعلقة بالتنمية أن تبرز الدور الذي يمكن أن تلعبه الدول المتقدمة في القضاء على التخلف داخل دول العالم الثالث. وفي هذا الإطار قدمت نظريات كان ظاهرها إضفاء الصبغة العلمية على السبل الكفيلة بالقضاء على أسباب التخلف، وفي حقيقتها تعمل على تعميق الاستغلال والسيطرة الاقتصادية، وتثبيت التبعية الاقتصادية للدول الغربية.

ومن هذه الدراسات تلك التي تنسب إلى الاتجاه الانتشاري، ومؤداها أن التنمية يمكن تحقيقها من خلال انتقال العناصر الثقافية السائدة في الدول المتقدمة إلى الدول المتخلفة، وانتشار هذه العناصر الثقافية المتقدمة إلى عواصم الدول المختلفة ثم إلى عواصمها المحلية[2]. فالاتجاه الانتشاري يؤكد فكرة انتقال المعرفة والمهارات والتنظيمات والقيم والتكنولوجيا ورأس المال كوسيلة لإحداث التنمية الاقتصادية والتغير الثقافي.

وقد أكد المنظّر الإعلامي الماركسي الأمريكي(هربرت شيلر)، أن النظام الرأسمالي العالمي، من خلال الشركات العابرة للقوميات لا يعمل بلا هوادة على

(2) انتوني غدنز بمساعدة كارين بيردسال، علم الاجتماع، ترجمة وتقديم فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، مؤسسة الترجمان، بيروت، 2005، ص706,

(1) محمد محمد امزيان، منهج البحث الاجتماعي بين والوضعية والمعيارية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، الولايات المتحدة، 2008، ص126.

دمج كل المجتمعات في نطاقه... ووفقاً لشيلر، فإن القوة السياسية الاقتصادية لهذه الشركات وانتشارها العالمي، تصاحبها قوة أيديولوجية لتعريف الحقيقة الثقافية العالمية[1].

نلاحظ من تحليل شيلر أنه ليس فقط أن الرأسمالية تعرف وتشكل الاقتصاد السياسي العالمي، ولكنها خلال هذه العملية تحدد الثقافة العالمية في توزيع المنتجات الإعلامية المسلعة commercialized التي تحتوي على روح وقيم رأسمالية الشركات والنزعة الاستهلاكية. ويدرك هذا في صورة كلية ثقافية (أسلوب حياة ونهج تنموي) تتبعه الدول النامية[2].

ثالثاً: الأيديولوجيا ونظرية علم الاجتماع:

يرتبط الفكر الاجتماعي في كل عصر من العصور بطبيعة المرحلة التاريخية وبنوعية البناء الاجتماعي والثقافي القائم وبالنظم الاجتماعية السائدة وفي مقدمتها النظام الاقتصادي.

ويذهب (تریاكيان) Tiryakian إلى أن هناك أوجه ارتباط عديدة بين ظاهرة علم الاجتماع وبين البناء الإيديولوجي القائم داخل المجتمع. ويمكن تتبع ذلك الارتباط خلال المراحل المختلفة لتطور علم الاجتماع، واعتبار من نقطة انطلاقه حتى الوضع الحالي لهذا العلم في جميع دول العالم[3].

أما (إلفن كولدنر) (1920–1980)، فيرى أنه إذا كانت كل نظرية اجتماعية هي نظرية سياسية ضمنيا، فإن كل نظرية اجتماعية تعتبر كذلك نظرية شخصية، لكونها تعبر بصورة حتمية عن الخبرة الشخصية للأفراد الذين ألفوها. وبذلك يكون لكل نظرية اجتماعية دلالة شخصية وسياسية[4]. وهذا يعني أن النظرية تنطوي دائماً على نظرة معينة إلى الفعل السياسي، وعلى أشكال الفعل

(2) جون توملينسون، مصدر سابق، س122.

(3) المصدر نفسه، ص113.

(4) Edward Triyakian, Introduction to the Sociology of Sociology: In the Phenomenon of Sociology, N. Y., 1971, P2.

(1) الفن كولندر، الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي، ترجمة وتقديم على ليله، المشروع القومي للترجمة، العدد(667)، ط1، القاهرة، 2004، ص90–111.

الممكنة والمستحيلة. كما أن النظرية الاجتماعية لا تتكلم فقط عن العمليات والصراعات والمشكلات الاجتماعية، بل هي كذلك جزء من تلك العمليات والصراعات والمشكلات.

وإذا كانت الحروب العالمية الأولى والثانية لها تأثيرها على ظهور وتبلور اتجاهات عديدة في نطاق الفكر الاجتماعي، فإن انقسام العالم إلى معسكرين أيديولوجيين أدى إلى نشأة فترة الحرب الباردة بين القوى الرأسمالية والاشتراكية في العالم، وأرتبط بذلك ازدهار البحث الاجتماعي، وظهرت فكرة الالتزام الأيديولوجي للباحث بدلاً من الحياد العلمي، أي ضرورة التزام الباحث بقضايا مجتمعه، وتوجيه أفكاره العلمية لخدمة مصالح هذا المجتمع. وأدى التحول من الالتزام العلمي إلى الالتزام الاجتماعي إلى ازدهار الأبعاد الأيديولوجية للنظريات والقضايا العلمية.

وفي هذا الإطار تميزت فترة الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين بتجاهل الحدود الفاصلة بين العلم والأيديولوجيا، أي بين العلم كقضايا وأبنية نظرية علمية في ذاتها وبين استخدام هذه العناصر العلمية في الدفاع عن مصالح المجتمع، وأدت هذه الحالة إلى فوضى عقلية وأكاديمية خطيرة[1].

وقد كان من الطبيعي أن يعبر النظرية الاجتماعية عن فلسفتين متناقضتين لكل منهما رؤية خاصة للإنسان والمجتمع والقيم والمثل والغايات، وكل منهما يعبر عن الأهداف تعبيراً مناقضاً للآخر حسب المنطلقات والخلفيات التي يحملها مجتمع رأسمالي محافظ يهدف إلى خلق التوازن، وآخر اشتراكي ثوري يهدف إلى التغيير.

ولذلك كان من المنطقي أن تقف النظرية الماركسية كما يقول (بوتومور) (1920...) على خط النقيض لكل النقاط الرئيسية في النظرية البنائية الوظيفية التي سادت العلوم الاجتماعية والأنثروبولوجيا خلال العشرين أو الثلاثين سنة الماضية. والتي ظهر يوماً بعد يوم عدم كفايتها، فحيث تؤكد الوظيفية على التجانس الاجتماعي، تؤكد الماركسية على الصراع الاجتماعي، وحيث تركز

(2) علي ليلة، روبرت ك. ميرتون، ميرتون والتجديد من داخل البنائية الوظيفية، المكتبة المصرية، الإسكندرية، 2006، ص25.

الوظيفية على نظم الحياة الاجتماعية من خلال قيم وأنماط عامة، تركز الماركسية على اختلاف المصالح والقيم داخل كل مجتمع، وعلى دور القوة عبر فترة زمنية أطول أو أقصر في فرض نظام اجتماعي معين واستمراره[1].

وقد أوضح (الفن كولدنر) الرأسمالي أن الماركسية قد واجهت أول أزماتها حينما أصبحت ولأول مرة الأيديولوجية الرسمية للإتحاد السوفيتي السابق ودول أوربا الشرقية حيث فقدت بذلك قوتها النقدية وتحولت إلى وسيلة للدفاع عن بعض النظم السياسية[2]. فهي إذن تقوم بنفس ما تتهم به خصومها، إذ تعمل على تأكيد الواقع الاجتماعي السائد وتقف دون حدوث أي تغيير معاكس للتوجيهات الحزبية.

من ناحية أخرى، يعترض السوسيولوجيون الماركسيون على الأسلوب غير العلمي لعلم الاجتماع الرأسمالي (البنائية الوظيفية) وذلك بوجود عدة نظريات تتقاسم الأدوار في هذا العلم، ويرون أن شدة اختلافها وكثرة تناقضها دليل على عدم علميتها، ولذلك نجد عالم الاجتماع الماركسي (أوسيبوف)، يصف علم الاجتماع الغربي بعلم الأساطير الاجتماعي. والنظريات الغربية في نظره لم تتواصل إلى صياغة القوانين الاجتماعية كما هو الحال عند السوفياتيين الذين أخضعوا كل بحوثهم لقانون المادية الجدلية والتاريخية واستطاعوا أن يخرجوا الفكر الاجتماعي من تيه الفلسفات الميثالية والأمبريقية والمدرسية[3].

أما وجهة النظر الذي يرى في علم الاجتماع وسيلة لفهم العالم، وذلك تمهيداً لتحقيق ظروف أكثر ملائمة يمكن أن يعيش في إطارها الإنسان. وبهذا الصدد يؤكد عالم الاجتماع (دون مارتندال) أن القول بأن علم الاجتماع في البداية كان جزءاً من أيديولوجيا محافظة ليس هجوماً عليه أو دفاعاً عنه، ذلك أنه إذ قيل على نطاق ما أنه إيديولوجيا، فإن هذا النطاق يحرمه من صفة كونه علماً، ذلك لأن طبيعة العلم تؤكد على أن الموافقة النهائية على تعميم، إنما ترتكز على المعايير الموضوعية التي يتضمنها النظام العقلي، ثم يؤكد على أن علم الاجتماع

(1) بوتومور، علم الاجتماع –منظور اجتماعي نقدي، ترجمة وتقديم عادل مختار الهواري، الشركة العامة للتجهيز والنشر والتوزيع، الفأس، المغرب، ص 79.

(2) السيد الحسيني، نحو نظرية اجتماعية نقدية، القاهرة، 1982، ص191.

(1) أسيبوف. ج، قضايا علم الاجتماع، مصدر سابق، ص255.

يستطيع أن ينمو ويبقى فقط إلى الدرجة التي يتمكن فيها من صياغة علمية ومهنية[1].

يعتقد روبرت ميرتون (1910–1992) أنه من الطبيعي أن تنال البنائية الوظيفية بعض آثار الفوضى العلمية والأيديولوجية، بحيث اعتبرت البنائية الوظيفية نوعاً من الأيديولوجيا المحافظة. ولقد حدث ذلك بسبب ثلاثة عوامل أساسية ويتمثل العامل الأول في حالة التضاد الأيديولوجي التي ظهرت كانعكاس لتبلور معسكرات الحرب الباردة. ويتصل العامل الثاني بموقف الجماعات البرجوازية في المجتمع الرأسمالي، وتشكيل أبنية نظرية للدفاع عن إيديولوجيتها لمواجهة الماركسية. ويرتبط العامل الثالث بطبيعة المقولات النظرية للبنائية الوظيفية، وبخاصة الأنثروبولوجية، وتأكيدها على مقولات التكامل والاستقرار والتوازن الكامل إلى الحد الذي ينظر في نطاقه إلى التغير باعتباره حالة طارئة تفرض على النسق الاجتماعي من خارجه[2].

من ناحية أخرى، حاول ميرتون الوصول إلى موقف موضوعي، رغم وجود بعض التوجهات الأيديولوجية المعارضة والتي يمكن أن يتضمنها التحليل الوظيفي. حينما يفترض أن التحليل الوظيفي قد لا يتضمن أي التزام إيديولوجي جوهري فيه، بالرغم من أنه مثل كل أشكال التحليل السوسيولوجي يمكن أن يختلط أو يتشبع بأي من التوجهات الأيديولوجية العديدة والواسعة النطاق... ثم يقدم ميرتون برهنة منهجية رائعة يعقد فيها مقارنة بين الاتجاه الوظيفي من ناحية وبين المادية التاريخية كما تبلورت عند روادها ماركس وإنجلز من ناحية ثانية، ثم يصل إلى نتيجة من هذه المقارنة تؤكد قدرة الاتجاه الوظيفي على معالجة كافة ظواهر التغير والصراع والثورة بنفس كفاءة التصور المادي الجدلي. ثم يؤكد بعد فراغه من هذه المقارنة، أن هذه المقارنة المنظمة قد تكون كافية لتوضيح أن التحليل

(2) علي ليلة، بناء النظرية الاجتماعية، مصدر سابق، ص119.

(3) Merton, K, R, Social Theory and Social Instructor, the Three Press of Glencose, 1962, P.20.

الوظيفي لا يحتوي بأي شكل –أكثر من المنهج الجدلي– على أي التزام إيديولوجي محدد[1].

يتضح مما سبق، أن النظرية الاجتماعية لا زالت تعرف أزمة خانقة رغم التحولات التي عرفتها والعقبات التي تخطتها، فهي أزمة ذاتية وليست عابرة، فهي أزمة في الأسس التي قام عليها علم الاجتماع نفسها، بحيث تفتقد هذه الأسس إطاراً مرجعاً موحداً قادراً على إعطاء رؤية منهجية. أي النقص في وحدة التصور العام الذي يضمن لها انسجامها وتجانسها فكرياً وعقلياً ومنهجياً ونظرياً وتطبيقياً.

إن علم الاجتماع استخدم كسلاح إيديولوجي في الحوار الذي دار بين المعسكرين الماركسي والرأسمالي، وإن العلم حينما يتحول من أداة معرفية إلى أداة إيديولوجية، يفتقد بذلك أخص خصائصه، ويبتعد عن أهدافه، ويتحول إلى دعوة عقائدية، وفي بعض الأحيان إلى جدل عقيم، إن هناك اختلافاً جوهرياً بين العلم والأيديولوجيا، فالعلم كما يقول أحد النقاد يحصر مهمته في الكشف عن الحقيقة، بينما يبحث الأيديولوجي عن الحقائق التي تثبت عقيدة أختارها ووافق عليها سلفاً، فالنزعة الأيديولوجية، سواء كانت محافظة أو ثورية، تسعى إلى تحقيق مصالح أو المحافظة على مصالح معينة خلاف العلم الذي. لا نجد لديه أي التزام سياسي، لأنه حصر مهمته في الكشف عن الحقيقة[2]. كما أن العلم يقبل النقد العلمي، ومفتوح للفحص لما يستجد من حقائق علمية والتي تستند إلى براهين موضوعية، أما الأيديولوجيا فهي لا تعرف المبادئ العلمية، وتضع نفسها فوق العلم وتسعى إلى ممارسة تأثيرها عن طريق الشعارات ومخاطبة العواطف.

وبهذا الصدد، فإن علم الاجتماع، كما يقول (ألان تورين)، لا يفرض نفسه إلا عندما يضمحل صوت الأيديولوجيا السائدة، وفيما عدا ذلك يظل مضايقاً ومنقياً، وحتى تحليل المجتمع لا يسعه إلا أن يكون مجرد تعليق على التفسير الرسمي[3].

---

(1) Ibid, pp.39-42.

(1) على ليله، البنائية الوظيفية في علم الاجتماع والانثروبولوجيا، المفاهيم والقضايا، ط1، دار المعارف، القاهرة، 1982، ص58.

(2) أمزيان، منهج البحث الاجتماعي، مصدر سابق، ص1.

بيد أن هذا لا يمنع باحثاً أو عالماً أن يكون له موقف أيديولوجي، ولا يقتصر ذلك على العلماء الاجتماعيين بل يشمل العلماء الطبيعيين أيضاً. كما أن الجوانب الأخلاقية والأنحيازات الأيديولوجية موجودة في الاثنين. فمثلا جاليلو الذي قاد نضالاً ضد الفكر الديني وإيديولوجيا رجال الكنيسة ومهاجمته، فإنه كان يقوم في هذه اللحظة بدور إيديولوجي إلى جانب دوره العلمي، إلا أنه في أدائه الأيديولوجي يظل ملتزماً أساساً بقضايا العلم ومتطلباته، مثل هذا الموقف ينطبق على كارل ماركس وتالكوت بارسونز وهابرماس (1939...)، فهناك في أنساقهم النظرية قضايا علمية أساساً، إلا أنهم قد يستخدمون هذه القضايا العلمية استخدامات إيديولوجية معينة، كما أن الاختلاف الوحيد بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية هو أن العلوم الطبيعية تتحصن بأدواتها التجريبية والمعملية التي اكتسبت مصداقة واحتراماً قد يجعل البعض لا يناقش لنتائج غير المتفق حول فائدتها للإنسان. فاستعمالات العلوم الطبيعية أيضاً تحتمل الخير أو الشر، الضرر أو النفع معاً.

هذا بالإضافة إلى أن قضية الاستخدامات الأيديولوجية للمعرفة مسألة عامة، وتنطبق على كافة العلوم الاجتماعية، وعلى أي إطار تحليلي أو نسق نظري داخل العلم الاجتماعي. وبذلك نلاحظ أن الأيديولوجيا قد تستفيد من قضايا النظرية الاجتماعية كنظرية علمية لدعم موقفها وكيانها أو تحقيق أهدافها، إلا أن النظرية العلمية لا يتوقف نموها على إسهامات أو تأثيرات إيديولوجية معينة.

في النهاية، نقول إنَّ علم الاجتماع لا بد أن تكون له وظيفة إيديولوجية لكي يكون الباحث مهتماً وملتزماً بقضايا الإنسان والمجتمع، ويعطي مجتمعه الأدوات المعرفية والعملية التي تمكنه من تحقيق طموحاته.

رابعاً: الإيديولوجيا والبحث السوسيولوجي:

هناك حقيقة أصبحت من المسلمات في تاريخ الفكر الغربي وعند البعض وهي أن الصراع بين العلم والدين كان ضرورة تاريخية لا محيد عنها، فهما ضدان لا يجتمعان وعدوان لا يتصالحان وكل واحد منهما يسعى إلى تدمير الآخر. لقد ظلت هذه السمة المميزة لعلاقة العلم بالدين ثابتة في تاريخ الفكر الغربي حتى

أعتقد بعض المفكرين هناك أنها سمة طبعت علاقة العلم بالدين إطلاقاً، وليست خاصة بالمنهج الغربي.

وبهذا الصدد، يقول المفكر الغربي (إميل بوترو)، إن أمر العلاقات بين العلم والدين حين يراقب في ثنايا التاريخ يثير أشد العجب، فإنه على الرغم من تصالح العلم والدين مرة بعد مرة، وعلى الرغم من جهود أعاظم المفكرين التي بذلوها ملحين في حل هذا المشكل حلاً عقلياً، لم يبرح العلم والدين قائمين على قدم الكفاح، ولم ينقطع بينهما صراع يريد به كل منهما أن يدمر صاحبه لا أن يغلبه فحسب... فقد تحرر العلم وأخذ ينذر بفناء الأديان، ولكن الأديان ظلت راسخة، وشهد بما فيها من قوة الحياة عنف الصراع[1].

وهكذا، مع نهاية القرن الثامن عشر كانت ملامح الحداثة واضحة ومتغلبة على الاتجاهات الكنسية وبدأت تبسط سلطانها على المرافق التي تشغلها الكنيسة، وبذلك مهدت لأكبر ثورة اجتماعية وثقافية في تاريخ الغرب وهي الثورة الفرنسية التي شكلت أعظم سند لقيام المنهج الوضعي الذي سيتجسد في فلسفة اوكست كونت (1798–1857). إن نقاد كونت يذهبون إلى أن نظريته في علم الاجتماع ليست سوى تعبير عن إلايديولوجيا الوضعية المنبثقة من واقع المجتمع الفرنسي بعد الثورة التي استهدفت الوقوف أمام فلسفات عصر التنوير والفلسفات الثورية[2].

وحينما يعلن المنهج الوضعي ويقرر أمام الفكر الإنساني قاطبة أن السيادة النهائية قد استقرت حتماً للمنهج الوضعي بعد أن تولت نهائياً الأساليب اللاهوتية والميتافيزيقية، يكون العلم قد جاوز حدود العلم إلى مجال إلايديولوجيا[3]. بمعنى أن العلم في هذه الحالة لم يعد مجرد أسلوب في البحث، وإنما دعوة إيديولوجية تحل محل الإيديولوجية اللاهوتية السابقة. كما أنه من العسير تخليص العلم من سيطرة السياسة وتوجيهها نظرية ومنهجاً وميداناً وتطبيقاً. وحيث لا يمكن تعطيل السياسة ليتقدم علم الاجتماع، فلا مناص من أن يسير الأخير في ركاب الأول.

---

(1) أميل بوترو، العلم والدين في الفليفة المعاصرة، ترجمة: فؤاد الهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973، ص272.

(1) السمالوطي، الأيديولوجيا وأزمة علم الاجتماع المعاصر، مصدر سابق، ص119–120.

(2) محمد محمد أمزيان، مصدر سابق، ص44.

هذا، لا يعني أن الإيديولوجيا المعاصرة لا تستخدم العلم في سبيل تكريس ما تراه من حقائق، فتعمل الإيديولوجيات على اختيار النظريات العلمية لهذا الغرض، حيث يتم هذا الإختيار بشكل مسبق، فلا يجري اختيارها أو تسخيرها إلا بقدر ما تفي به وتنجز متطلباته، كما أنه ليس من النادر تفسير تلك النظريات بحيث تأتي منسجمة مع تعاليم إيديولوجية معينة، أو بحيث يصبح استخدامها كحجج لتأييد هذه إلايديولوجية[1].

كما وتعكس كل نظرية سوسيولوجية شخصية وملامح وإيديولوجية صاحبها أو مروجها خلال الفروض الموجهة للنظرية والبحث والدراسة والتي تنقسم إلى فروض مصاغة داخل النظرية كالمسلمات Postulate والفروض الخلفية الشخصية للباحثين والتي تلعب دوراً بارزاً في كل مراحل النظرية والبحث. فالتجارب الشخصية للعلماء والباحثين تنعكس في فكرهم وممارستهم العلمية والعملية ولذلك فإن البناء التحتي للنظرية يكشف لنا عن عناصر جوهرية خاصة وجهت الدراسة والبحث والنظرية اتجاها معيناً دون غيره وبالتالي فلا بد أن تحظى بالاهتمام[2].

إن فلسفة العلم المعاصر تعترف، وفي ميدان الذرة بالذات، أنّ القانون العلمي اختراع إنساني ينتج حلولاً نسبية ومؤقتة، لكن إنتاجيته ماثلة للعيان، في حين تخفق العلوم الإنسانية في فرض إنتاجيتها بصورة مباشرة. لذلك تدخل معها إلايديولوجيا في صراع اختزال ومسخ وتحجيم لمنهجيتها وأنظمتها المعرفية. كأنما لا يمكن للعلوم الإنسانية أن تظهر لها ثمة إنتاجية داخل مجتمعاتها إلا عندما تتحول إلى أيديولوجيا. وعند ذلك تنقلب العملية المنهجية بكاملها[3].

---

(3) مالك عبيد أبو شهيوة وآخرون، مصدر سابق، ص68.

(1) Alvin Gouldner, The Coming Crisis of Western Sociology, London, Heinemann. 1971. p.41. الكتاب المترجم إلى العربية من قبل علي ليله بعنوان (الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي).

(2) مطاع صفدي، نقد العقل الغربي– الحداثة مابعد الحداثة، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990، ص44 3 .

كما أن الباحثين في العلوم الاجتماعية لا يستطيعون أن يعيشوا بحياد عن دلالات بحوثهم ونظرياتهم ٍالتي طبقوها على مجتمعاتهم، الأمر الذي يفرض ضرورة النظر إلى الفاعل الإنساني كمعرفة أو كقدرة، فضلاً عن اعتباره موضوعاً للبحث والدراسة[1].

وعلى أية حال، فإن هذا لا يجب أن يكون حكماً نهائياً برفض هذا العلم برمته والتشكك في كل قضاياه ونتائجه ونظرياته. حيث تختلف نسبة التزام النظريات والبحوث بالتوجيهات الإيديولوجية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ودرجة التزامهم بالقيم العلمية والإنسانية. بالإضافة إلى أن النظريات والبحوث تحاول أن تنفذ البحوث والنظريات السوسيولوجية ذات التوجه الإيديولوجي المعارض يكشف فروضها ودعاويها الحقيقية وتعرية أساليبها النظرية والمنهجية التي تتبعها في إجراء البحوث. ناهيك عن تحول العلم السوسيولوجي إلى علم نقدي، لا يهتم بالتحزب النظري والإيديولوجي أو ما يسميه سان سيمون (1760-1825) بحرب (القبعات)، وإنما يهتم بمصلحة العلم وتطور المعرفة الموضوعية والمنطقية في مختلف ميادين علم الاجتماع.

خامساً: نهاية الإيديولوجيات في الدراسات السوسيولوجية:

إن الدعوة إلى نهاية إلايديولوجيا ليست بدعوة جديدة، إذ تعود هذه المسألة إلى القرن التاسع عشر عندما كان يتصور)ماركس(حدوث ثورة تؤدي إلى نهاية كل أشكال الاغتراب وبناء عالم حر من الضغوط وسيطر على الضرورات... تتدرج الغايات لدى ماركس من خلال الأحداث التي توقعها هو... وهذه الأحداث هي نهاية الاغتراب الديني، ونهاية الفلسفة التأملية العقلانية، نهاية إلايديولوجيات، بإحلال الحقيقة المحسوسة والعملية مع التفسيرات والتمثيلات المستخدمة من قبل

(3) طاهر حسو الزيباري، نظرية تشكيل البنية عند أنتوني جيدنز- دراسة تحليلية نقدية، مجلة زانكؤ للعلوم الإنسانية، جامعة صلاح الدين/ أربيل، العدد(30)، 2007، ص173.

الطبقات المسيطرة، نهاية التاريخ، ونهاية الطبقات ذاتها من خلال بناء مجتمع بلا طبقات...الخ[1].

وقد ساهم مؤسس علم الاجتماع (كونت) أيضاً في ترسيخ أسس نهاية الإيديولوجيا في القرن التاسع عشر عندما حاول أن يفسر أسباب الصراعات التي كانت سائدة في عصره وإيجاد حلول لها. فلم يرجع (كونت) الصراعات القائمة إلى عوامل اقتصادية أو طبقية أو إلى تناقض المصالح، ولكنه أرجعها إلى نماذج فكرية وسلوكية تنتمي إلى مراحل تاريخية منصرمة قدمها في مقابل المراحل التطورية الماركسية[2].

أما مراحل التطور التاريخية التي حدّدها كونت هي المرحلة اللاهوتية، والمرحلة الميتافيزيقية، والمرحلة الأخيرة هي المرحلة العلمية، أي الفهم العلمي في تفسير الظاهرات. وعليه فإن الصراعات الإيديولوجية عنده تنتمي إلى المراحل الأولى والثانية من تطور الفكر البشري. لذلك دعا إلى نبذ هذه الصراعات من خلال اكتشاف وتطبيق القوانين العلمية لحل المشكلات الاجتماعية وبناء نظام يحقق الاستقرار في المجتمع. حيث دعا إلى (فكرة المجتمع الصناعي) الذي لا يقوم على إلايديولوجيا بقدر ما يقوم على ما أطلق عليه (التنظيم). هكذا بنى كونت القاعدة الأساسية لفكرة نهاية إلايديولوجيا التي أنطلق منها علماء الاجتماع الغربيون في القرن العشرين[3].

وكان كارل مانهايم أول من ربط إلايديولوجيا واليوتوبيا ضمن علاقة جدلية متكاملة، لذلك فقد وجد مانهايم أن الطبقة التي بإمكانها أن تتحرر من إلايديولوجيا واليوتوبيا هي طبقة المفكرين والمثقفين الذين هم متحررين من الروابط الاجتماعية

(1) هنري لوفيفر، نهاية التاريخ، ترجمة فاطمة اليوشى، وزارة الثقافة السورية، دمشق، 2002، ص40-41.

(2) المصدر نفسه، ص21.

(1) سمير أيوب، تأثيرات الإيديولوجيا في علم الاجتماع، معهد الإنماء العربي، ط1، بيروت، 983، ص164.

والمصالح الخاصة والانتماءات الطبقية سواءاً للطبقة الحاكمة أو للطبقة المحكومة[1].

إن أسطورة نهاية الإيديولوجيا كان لها صدىً قوي داخل أوساط مؤتمر ميلانو مؤتمر الحرية الثقافية في أيلول 1955 وكان موضوع مستقبل الحرية محوراً رئيسياً له لمناقشة قضية الإيديولوجيا، وأكد المؤتمر في خلاصته إلى نقد الإيديولوجيا، والفكر العقائدي، بحسب إدوار شيلر الذي تحدث عن المؤتمر في مقال له حمل عنوان نهاية الإيديولوجيا في تشرين الثاني عام 1955، والذي يعتقد إنه أول استخدام واسع لهذا المصطلح الذي شاع منذ ذلك الوقت[2].

وبعد هذا المؤتمر بفترة صدرت عدة دراسات نظرية اجتماعية وسياسية لدعم مقولة المؤتمر. وهذا التيار يقول بموت الإيديولوجيا في العلوم الإنسانية، ويتصور هؤلاء الاجتماعيون أن القول بعدم وجود الأثر الإيديولوجي في أعمالهم، يعني في الواقع خلوها من الإيديولوجيا، ولكن في الحقيقة نجد أن أكثر الرافضين أو المطالبين بإبعاد الإيديولوجيا عن ملكوت العلوم الإنسانية وعلم الاجتماع بالذات تفشي كتاباتهم وممارساتهم مرتكزات إيديولوجية مبطنة.

فكتاب (دانيال بيل) D. Bell (1919..) عن (نهاية الإيديولوجيا) يربط بين مفهومه للايدولوجيا وزوال مقاصده، فالإيديولوجيا عنده دين مدني، كما إنها تحويل للأفكار إلى دوافع اجتماعية، ومن ثم فإنها التزام بنتائج تلك الأفكار[3]. كما أعتبر بيل أن عصرنا يشهد نهاية إيديولوجيات القرن التاسع عشر ويعني الماركسية. كما أن كتاب ريمون ارون Aron Raymond (1905–1983) (افيون المثقفين) هي في الواقع مواقف إيديولوجية مضادة للماركسية فقط، وليس للإيديولوجيا حصراً. وأعلن آرون أن نهاية الإيديولوجيا تعني نهاية الإيديولوجيا[4]،

(2) كارل مانهايم، مصدر سابق، ص303.

(3) بكري خليل، الإيديولوجيا والمعرفة، ط1، دار الشروق، عمان، 2002، ص408.

(1) Danial Bell, the End of Ideology, on the Exhaustion of Political Ideas in the Fifties, the Free Press, N.Y. 2001, pp.402-403.

(2) مراد وهبه، الأيديولوجيا والحضارة، مجلة قضايا عربية، س8، العددان 11–12، ت1/ك1، 1981، ص14.

وبحسب هؤلاء العلماء فإن إلايديولوجيا قد انتهت بفضل تحقيق دولة الرفاة التي حققت بدورها الرخاء الاقتصادي، ناهيك عن الحرية والسعادة في المجتمعات الديمقراطية الغربية، وظهر نوع من الانسجام بين الطبقات التي كانت في صراع دائم.

يؤيد هربرت ماركيوز Marcuse Herbert (1898–1979) نهاية إلايديولوجيا. لكن بمقابل ذلك يعتقد أنَّ المجتمعات الصناعية المتقدمة تنتج أفكاراً زائفة حول الحرية والسعادة والرخاء ومن أجل إخفاء تناقضاتها وإدانة استغلالها فإنها تلبس لباساً إيديولوجياً زائفا، وتروج لهذا الوعي الزائف من خلال إيديولوجية التطور العلمي والتكنولوجي وهي إيديولوجية يعتبرها هابرماس مبنية على أساس عدم استقلال العلم والتقنية عن النظام الاقتصادي والسياسي والإداري في المجتمعات المتقدمة. لذلك فإن العلم والتقنية لا يندمجان وحسب بالنظام الاقتصادي، بل وأيضاً بالمراجعات الإدارية المركزية في. مجتمعاتنا. وبشكل ما يتسيّس المجمع العلمي– التقني، بمقدار ما تصبر السياسة علماً[1].

يتضح مما سبق، أنَّ العلم والتكنولوجيا يحملان الطابع إلايديولوجي المزيف بغية السيطرة والسيادة لا على الإنسان فحسب، بل وعلى الطبيعة أيضاً. وفي ظل هذه إلايديولوجية يتحول الإنسان إلى كائن مصطنع تصنعه إيديولوجية العلم والتكنولوجيا كيف ما يشاء.

هذا ويؤكد (كولا كوفسكي) Kolakowski أن الإيديولوجيا تعبر عن القيم السياسية الاجتماعية ودوافع السلوك وأساليب تحققها ولا يمكن المطالبة بتحرير العلم من الإيديولوجيا لأنه لن يكون علماً إنسانياً حينذاك، ومما يؤكد على زيف دعاوى التحرر الإيديولوجي أو نهايته، أن تقييم الاتجاهات النظرية السوسيولوجية قبل المطالبة بإلغائها لتوجهها الإيديولوجي يشكّل في حد ذاته سلوكاً، وفعلاً أيديولوجياً[2].

---

(3) يورغن هابرماس، العلم والتقنية كأيديولوجيا، ترجمة: الياس حاجوج، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1999، ص8.

(1) John Rex Henly, Key Problems of Sociological Theory, London and Henly Routledge and Kegan Paul,1980, pp.186-189.

ومع نهاية عقد الثمانينيات وبداية عقد التسعينيات من القرن العشرين برزت قضية الأيديولوجيا مجدداً على أثر نهاية الحرب الباردة وبسقوط الإتحاد السوفيتي السابق والمنظومة الاشتراكية الأوربية التابعة لها. ويتضح ذلك من مقالة (نهاية التاريخ) للمفكر الأمريكي (فرانسيس فوكوياما)، إن فكرة نهاية التاريخ تعيد إلى الذهن فكرة علمية نهاية الإيديولوجيا التي تحدث عنها (ليبست)(1933...).

وآخرون ممن تحدثوا عن نهاية الصراع الطبقي التي تحققت من خلال الانسجام بين الطبقات بفضل النظام الديمقراطي والتطورات العلمية والتكنولوجية السائدة في المجتمعات الديمقراطية آنذاك. وعلى أثر هذه الأحداث العالمية رأى (فوكوياما) أن إجماعاً ملحوظاً قد ظهر في السنوات القليلة الماضية في جميع أنحاء العالم حول شرعية الديمقراطية الليبرالية كنظام يحكم بعد أن لحقت الهزيمة بالإيديولوجيات المنافسة مثل الملكية الوراثية، والفاشية، والشيوعية في الفترة الأخيرة. وإن الديمقراطية الليبرالية قد تشكل نقطة النهاية في التطور الإيديولوجي للإنسانية، والصورة النهاية لنظام الحكم البشري وبالتالي فهي تمثل(نهاية التاريخ)[1].

غير أن نظرية نهاية التاريخ رغم دويها الفكري، واجهت انتقادات شديدة، تحت ضغط التحولات السياسية السريعة الإيقاع التي تحدث في البلاد الغربية الرأسمالية وذلك بظهور أيديولوجية سياسية جديدة هي (الطريق الثالث) للمفكر البريطاني أنتوني غيدنز (1938...)، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، تصاعد الحروب والنزاعات العرقية والدينية في مختلف مناطق العالم بعد زوال الحرب الباردة. مما أنعكس هذا الأمر على رفض أيديولوجية الديمقراطية الليبرالية كأيديولوجية عالمية قادرة على تحقيق الانسجام بين الدول وشعوب العالم.

وبذلك جاءت نظرية (صدام الحضارات) للمفكر الأمريكي صموئيل هنتنجتون (1927–2008) لتصوغ نظرية جديدة قادرة على تفسير أسباب تزايد

(1) فرانسيس فوكوياما، نهاية التأريخ وخاتم البشر، ترجمة: حسين أحمد أمين، مؤسسة الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، 1993، ص8. وكذلك ترجم الكتاب بعنوان (نهاية التأريخ والإنسان الأخير) من قبل فؤاد شاهين وآخرون، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1993، ص23.

الصراعات والحروب العرقية والدينية على مستوى العالم من جهة وإعلان نهاية الصراعات الإيديولوجية المرتبطة بسياسات حقبة الحرب الباردة ومن ثم إعلان سياسات جديدة قائمة على أساس الحضارات. ويعتقد هنتنجتون، لم تعد الفروق القائمة بين الشعوب أيديولوجية أو سياسية أو اقتصادية، وإنما هي فروق ثقافية... فالثقافة والهويات الثقافية التي هي على المستوى العام هويات حضارية، هي التي تشّكل أنماط التماسك والتفسخ والصراع في علم ما بعد الحرب الباردة[1]. وبذلك يعتقد هنتنجتون أن سبب نهاية الصراعات الإيديولوجية يعود إلى اختلاف الهويات الثقافية –الحضارية وليس اختلاف الإيديولوجيات في صراعات ما بعد الحرب الباردة.

يتضح من دراسة أسطورة نهاية الإيديولوجيات في الدراسات السوسيولوجية بأنها خرافة Myth أبتدعها أشخاص أيديولوجيون لاعتبارات شخصية أو سياسية خاصة. وهذا الحديث مناقضاً للواقع ومناقباً للمقتضيات الواقعية والعلمية، فالإيديولوجيا بكل معانيها ودلالاتها الإيجابية والسلبية، وبكل ما لها من الأشكال والخصائص والوظائف ترتبط في وجودها وبقائها بوجود الذات وبقائها. إذن، الأيديولوجيا هي جزء من حياتنا، وهي لا تموت كما يعتقد البعض، بل قد تختفي بعض عناصر أيديولوجية بعينها كنتيجة لظروف محددة في مرحلة معينة، ثم لتبعث من جديد.

خاتمـــــة:

إن إشكالية العلاقة بين الإيديولوجيا ونظرية علم الاجتماع من القضايا الهامة التي تحتاج إلى الدراسة. حيث تمثل النظرية الدعامة الأساسية في بناء أي علم، وبذلك لا يختلف علم الاجتماع عن غيره من العلوم الأمبيريقية الأخرى. كما كثر الجدل والحوار في السنوات الأخيرة حول قضايا عديدة تتعلق بالإيديولوجيا،

(2) صموئيل هنتنجتون، صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، ترجمة مالك عبيد أبو شهيوه ومحمود محمد خلف، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، 1999، ص73.

كقضية موقف الباحث من الالتزام العلمي والإيديولوجي، أو دور الإيديولوجيا في نشأة النظرية السوسيولوجية.

لا يستطيع أحد –دون شك– أن ينكر أن مفهوم الإيديولوجية قد أصبح معترفاً به في الفكر المعاصر. هذا وقد نشأ مصطلح الإيديولوجيا على يد دستوت دي تراس، ليشير به إلى علم الأفكار وأساليبه العلمية الواقعية، ليحرر الفكر من أنماط وأساليب التفكير اللاهوتية والميتافيزيقية، وليعبّر العقل والفكر الإنساني عن قضايا واقعية ومنطقية. ومن هذا المنطلق نُعرف الإيديولوجيا من وجهة نظر الدراسة، على أنها مجموعة من الأفكار والقيم والمعتقدات التي تواجه مجموعة من الأفراد، أو الجماعات، والأحزاب، والدول، والنظم السياسية، وتهدف إلى تحقيق أهداف معينة ترتبط بمصالح وأعمال وطموحات وأهداف مؤسسيها ككل.

هذا ويرتبط النسق الإيديولوجي بالأنساق الاجتماعية، الثقافية، والعقائدية، والتربوية، والسياسية، والاقتصادية ونسق القرابة. داخل المجتمع مما يترتب عليه اختلاف خصائص وسمات الإيديولوجيات التي تدين بها الجماعات المختلفة. حيث نجد في المجتمع الواحد مجموعة من الإيديولوجيات، فكل جماعة ذات ثقل ما، أو حزب سياسي، أو منظمة مهنية وغيرها يمكن أن تكون له أيديولوجية معينة.

كما أن طبيعة النظرية في علم الاجتماع، وطبيعة موضوعاته، وقضاياه تختلف عن طبيعة العلوم الإمبريقية الأخرى وموضوعاتها تتطلب الجمع بين العديد من المناهج والأساليب التحليلية والتفسيرية عند دراسة الظواهر الاجتماعية، والجمع بين النظريات التحليلية، والمعيارية، والميتافيزيقية والعلمية، ولتعقد الظاهرة الاجتماعية وتشعبها، بالإضافة إلى عدم قدرة الباحث على الفصل بين ذاته وقيمه، وبين المادة موضوع الدراسة والبحث بسبب الألفة بين الباحث الاجتماعي وبين الظواهر أو القضايا المدروسة. وبالتالي فإن علم الاجتماع كما أوضحنا في الدراسة لا بد أن يكون علماً أيديولوجياً، ولا مجال لقيام الدراسة السوسيولوجية الخالية من القيم أو التوجيه الإيديولوجي.

وأوضحت الدراسة، أن البعد الإيديولوجي لعلم الاجتماع قد أدى إلى تقسيم النظرية الاجتماعية إلى قطبين متصارعين ومتناقضين، كما أدى في دراسة

المفهوم الواحد في النظرية الاجتماعية بأخذ معاني متضادة ومتباينة، وتصبح الحقيقة الاجتماعية الواحدة ذات أبعاد متعارضة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، لقد وظف علم الاجتماع لخدمة المركزية الغربية وظهر ذلك في النتائج التي انتهت إليها الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية، وظهر واضحاً في التحيز السافر لعلماء الاجتماع في خدمة أهدافهم القومية.

وتوصلت الدراسة إلى أن علم الاجتماع في المرحلة الراهنة ممتلئة بعديد من النظريات التي تمتلك تصورات مختلفة للواقع، بحيث يصل اختلافها أحياناً إلى حد التناقض. ومن المنطقي أن يساعد الجدل والحوار بين هذه النظريات المتعددة إلى الوصول إلى النظرية العامة أو الشاملة للعلم، وهذا مرهون بضرورة مراعاة ثلاث قضايا. ويتمثل الأول في ضرورة تجنب الجدل الأيديولوجي كمدخل لصياغة الالتقاء بين هذه النظريات المتعددة. ويرتبط بذلك ضرورة تجنب الجدل الأيديولوجي في إطار مناقشة القضايا النظرية، حيث قد يجهل البعض الحدود الفاصلة بين القضايا ذات الطبيعة العلمية للنظرية الاجتماعية. ويؤكد الثاني على ضرورة التزام النظرية بحركة متغيرات الواقع. و يرتبط الثالث بضرورة الالتزام بأصول المنهج العلمي حين التعامل مع الأبنية النظرية.

The Ideological Dimension of Sociology: A Study in Sociological Theory

Prof. Dr. Tahir Haso Zebari*

Abstract

All of us bear ideology consciously or unconsciously. All of us relate to and respect certain values such as freedom, equality, authority, and so on. Some other carry tribal things, even those who deny that or claim that they have liberated from it. So, we look at the world through our beliefs and ideas, all of us associate with those who hold similar ideas to us, and more than that, all of us look at sensitive issues such as homeland, religion, nationality. Thus our beliefs create us and determine our choices and behaviors.

Without ideology we are individuals without conscience, leadership, and order. Without it also, we do not have a perception towards others and the world which we want to establish. Thus ideology creates our motivations and positions at both individual and institutional levels. The inventor of the concept ideology *Destutt detracy* in his book *Principles of Ideology* argues that ideology is the science of beliefs. Thus the theorist or thinker is a product of those beliefs and it is natural for ideology to affect his or her views about society and subsequently imposes on him or her concentration on some of the variables of reality as the most effective variables.

If the ideological function of a theory was one of its functions, the focus on ideology—as the main focus—was one

* Dept. of Sociology/ College of Arts/ University of Salahaddin – Erbil.

of the practices that have precluded the growth of theory in western context and our reality in Middle East. But, can we conclude that the objective fact has no existence? And subsequently we should avoid the search for it? Is it possible to establish on the principle of relativism? All theories are intellectual structures without having any link to the objective reality. And subsequently as a matter of principle they are all equal.

The researcher accordingly studies the relationship between ideology and sociology to understand the nature of ideology and its contribution to directing of theory, method, and research. The research also examines how this relationship has affected the scientific and objective dimensions of study and research. He tries to understand the position of sociologists in the countries of the world about the current sociological theories and their success in founding a unified sociology which is far from ideological orientation and studying social phenomena and issues as they exist in reality objectively.

The study examines this relationship as follows:

1. Sociological studying of ideology (concept and beginning)
2. Characteristics and functions of ideology
3. Ideology and the sociological theory
4. Ideology and sociological research
5. The demise of ideology in sociological studies

The study concludes that sociology in recent stage is occupied with theories carry different insights of reality. These insights occasionally reach to a point of comparison. It is logical that the debate and dialogue between these multi

theories help in developing a general and comprehensive theory. This is conditioned by the necessity of three issues: the first is the necessity of avoidance from the ideological debate as a beginning to the connection of different theories. This relates to the necessity of avoidance from ideological debate in the context of the debate over theoretical issues. The second emphasizes on the necessity of commitment to the dynamic nature of the variables of reality. The third focuses on the necessity of commitment to the rules of scientific methodology in dealing with theoretical structures.